

المعرفة عند ادغار موران بين براديغم التبسيط وابستمولوجيا التعقيد

Knowledge when Edgar Moran between Baradgem simplification and epistemology of complexity

عتيق ايمان¹ ATIG Imene

• جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس ، atigim067@gmail.com

تاريخ النشر: 2020/11/01

تاريخ القبول: 2020/02/21

تاريخ الاستلام: 2020/01/07

الملخص: ان الفكر الغربي المعاصر له العديد من الاطروحات المركزية التي ساعدت على زيادة الإنتاج في الحقل العلمي الأبستمولوجيا، حيث نجد أن الكثير من المفكرين ساهموا لا محالة في الرفع بالمعرفة وكل تجلياتها خاصة في ميدان العلوم الإنسانية والاجتماعية، ومن بينهم نجد الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسي ادغار موران أحد أكبر العقول الفلسفية الأوروبية ابهارا بغزارة انتاجه في الحقل الأبستمولوجيا العلمي المعاصر، واحد الايقونات المعاصرة التي لم تتوقف على نقد كل ما يتعلق ببراديغم التبسيط. ومن هنا نطرح التساؤل التالي: ما هو الفكر المركب عند ادغار موران؟

الكلمات المفتاحية: مفهوم النسق المركب، منظومة التعقيد، ابستمولوجيا التعقيد.

Abstract: Contemporary Western thought has many central theses that have helped to increase production in the field of epistemological science, where we find that many thinkers have inevitably contributed to the lifting of knowledge and all its manifestations, especially in the field of humanities and social sciences, including the French philosopher and sociologist Edgar Morin. The greatest philosophical minds of Europe impressed by the abundance of production in the field of contemporary epistemological science, and one of the contemporary icons that did not depend on criticism of everything related to the simplistic Bradygm. Hence the following question: What is the complex thought of Edgar Moran?

Key words: Concept of Complex Formula - Complexity System - Complexity Epistemology

¹ المؤلف المرسل: عتيق ايمان، الإيميل: atigim067@gmail.com

مقدمة:

من خلال الاعمال التي انتجها المفكر والفيلسوف وعالم الاجتماع ادغار موران توصل الى فكرة يؤكد على إثرها هيمنة منظومة التبسيط والاختزال إلى الوحدات الأولية لمختلف الحقول المعرفية كالذرة في الفيزياء، والخلية في علوم الحياة، والتركيب في قواعد اللغة على أساس أن الوحدة غير قابلة للتفكيك، ووحدها القابلة للضبط والقياس، فقامت منظومة التبسيط بتنظيم الكون عن طريق اختزاله في كيانات وجواهر مغلقة وثابتة، عذرية وخالدة، لا تعرف التناقض والاختلال. وبذلك شكلت لاوعي الفكر الغربي، وحكمت نظرياته وخطاباته وبالتالي الفكر المركب الذي اقره ادغار موران كان بمثابة وثبة بالمعرفة الى عالم معرفي جديد ينفي التبسيط المفرط ويتجه نحو مبدأ التعقيد وهذا ما سنتطرق له في مقالنا هذا عاملين على فهم منظومة التركييب والتعقيد.

1. مفهوم النسق المركب:

ما يمكن ان يقود الى التفكير والتمحيص هو ما معنى التركييب أو التعقيد؟ التعقيد يشير الى الكيان الواحد المركب من شذرات، فمثلا الانسان هو كيان واحد، في نفس الوقت هو مركب، أي معقد، وتركيبه يتكون من وحدات جزئية، تتمثل في أعضاء الجسم، هذه الأخيرة في ذاتها تعتبر وحدات كلية ايضا كما انها مركبة. كمثال اخر جهاز التلفزيون هو وحدة، اي نقول هذا تلفزيون واحد، بينما نستطيع تفكيكه الى شاشة وعتاد الكتروني دقيق، هذا العتاد الدقيق الذي يمثل تركيب التلفزيون في ذاته يعتبر وحدات، فمثلا الشاشة هي وحدة لكن في ذات الأمر هي أجزاء، حيث فمثلا عندما نأخذ الشجرة كمثال من الطبيعة، فالشجرة تتركب من اغصان وساق وجذور، إذا اخذنا أحد هذه الاجزاء مثلا الساق سنجد انه يتركب أيضا من لحاء وخشب، فحسب موران مسألة التعقيد هي ما يشكل هذا الواقع كما نعرفه، من وقائع وأحداث. اي ان المجتمع الانساني كوحدة هو خاضع لمبدأ التركييب، اي انه يتكون من اجزاء، المجتمع الانساني كوحدة يتكون من اجزاء كبيرة مجتمع عربي ومجتمع غربي، هذه الاجزاء تتكون من تركيبات أصغر مثلا في المجتمع العربي يتكون من المجتمع الجزائري والتونسي والمغربي ... الخ، اما الغربي يتركب من فرنسا امريكا ألمانيا ... الخ⁽¹⁾

أن هذا الخليط من التفاعلات يصل درجة يستحيل على العقل البشري، حتى في حالات مثالية، أن يدركها بواسطة التحليل. ومن ثمة لا معنى لأن نقوم بعزل المتغيرات من أجل

إدراك نسق أو حتى نسق أعلى، في مجموعه، الأنساق المتعددة الحالات تخلق تارة وتزيح تارة أخرى مجموعة من الإكراهات والحالات الجديدة، أي أنها تنجز قفزات نوعية داخلية تتحدى التحليلات الكلاسيكية؛ أن الأنساق المركبة تشتغل بقدر من عدم اليقين (بقدر من الضجيج)، والحال أن "الضجيج" يشوش على الآلات.

أن صلاحية آلة ما تكون أدنى من صلاحية كل قطعة على حدة من قطعها، في حين أن صلاحية الجسم الحي تتزايد باستمرار. ذلك أن الجسم الحي، ويفضل قدرة كل أعضائه على الوصول إلى نفس الغاية انطلاقاً من نقط انطلاق مختلفة، ويفضل قدرة الأعضاء على نقل وظائفها إلى أعضاء أخرى، وقدرتها على إصلاح أعطابها ذاتياً... الخ، ينمي من تلقاء نفسه حتميته البيولوجية، بل ينمي حتمية مركبة من عناصر متعددة ومتصلة ببعضها؛ لكنه يستخدم الشك، الصدفة، والتناقض لتحقيق ذلك، ومن ثمة يصبح أكثر عجزاً عن التحكم في هذه الحتمية المركبة.

وهكذا فإن تزايد الطابع المركب للنسق يمكن أن يفهم كنمو لحتميته الداخلية، ولحالات الفوضى والشك واللايقين المرتبطة بتزايد قدراته التنظيمية⁽²⁾.

1.1. التركيب المفرد:

ما المقصود بنسق مفرد التركيب؟ إنه نسق يخفض إكراهاته وينمي قدراته التنظيمية، وخاصة قدرته على التغير.

إن الدماغ البشري، وكذا المجتمعات الحديثة من خلال بعض سماتها، تشكل أنساقاً مفردة التركيب جزئياً.

إن التركيب لا يمكن أن يتحقق دون برمجة قوية (وراثية بالنسبة للأجسام الحية، وسوسيوقافية بالنسبة للمجتمعات القديمة والتقليدية)، ودون تراتبية قوية، أو درجة عالية وصارمة من التخصص لدى العناصر التي تكونه.

أما التركيب المفرد فيعني من جهته ضعف أو زوال المبادئ الصارمة للبرمجة وزوال التراتبية والتخصص، وذلك لصالح استراتيجيات للخلق والإبداع، ولصالح تعدد الوظائف (لدى الوحدات الأساسية أو الأنساق الفرعية)، ولصالح تعدد مراكز المراقبة ومراكز القرار. ندرك ذلك حينما نعاين الدماغ البشري، حيث نلاحظ ضعفاً في درجة تخصص الوحدات التي تكونه (الخلايا العصبية)، ونلاحظ أن العلاقة بين المخ والمخيخ وجذع المخ علاقة تفاعل وليست علاقة هرمية متصلبة، كما نلاحظ غياب مركز حقيقي للسلطة، وبدلاً منه نجد مراكز متعددة نشيطة ومتفاعلة فيما بينها. إن التركيب

المفرد خاصية توجد بالقوة في المجتمعات البشرية، بمعنى أن كل فرد داخل المجتمع يمتلك المؤهلات النبيلة، المؤهلات المفردة التركيب (دماغا يفكر)، وبمعنى أن تقسيم العمل ليس خاصية مادية ملازمة للأفراد أو الطبقات أو النخب الاجتماعية (خلافًا لمجتمعات الحشرات). هذه المجتمعات البشرية تنزع نحو التركيب المفرد بمعنى أن التراتبيات تسير نحو الانحلال، ومراكز القرار تسير نحو اللامركزية والتعدد، كما تبدأ سلسلة عمليات اللا تخصص (تعدد الأنشطة، تنوع الأدوار الاجتماعية). ولكن من الواضح أن المجتمعات، وحتى الأكثر تطوراً منها لازالت في طور التركيب من خلال سمات لم تصل بعد طور التركيب المفرد فإن الظواهر غير الدقيقة تشكل سمة خاصة من سمات التركيب المفرد. وبالكاد بدأنا نتعرف عليها ونفكر فيها خاصة عن طريق رياضيات المجموعات الضبابية (fuzzy sets) وسيكون من غير المجدي أن نطبق عليها مفاهيم بالغة الدقة، وقياساً كمياً يقينياً: إن الصرامة الحقيقية لا تكمن في المنهج الصارم، ولكن في المرونة والاعتراف بغياب الدقة: إن التفكير الشمولي والمشاريع النظرية الجديدة وحدها القادرة على فهم انعدام الدقة.

2.1. الوظيفة والتشخيص داخل الانساق المركبة:

كون النسق المركب مبرمجاً على ضوء أهدافه المحددة، ويمكن أن تعتبر أنشطته وظيفية أو غير وظيفية بالنظر إلى هذه الأهداف القابلة للجرد. ومع ذلك، فإن كان قد لاحظ أن الغايات الحقيقية لمنظومة حية غايات غير معروفة، وأن هناك شكاً فيما يخص الأهداف والوسائل داخل الجسم الحي. واكتشف السبيرنيطيقيون، من نواح أخرى، أن الغاية في نسق متعدد الأهداف تصبح غير يقينية. ويمكننا أن نتساءل: هل تحلم "الأميبا" بالتوالد؟ (جاكوب)؛ هل تحلم بالأبيض؟ وبعبارة أخرى: هل نعيش من أجل الحياة أم من أجل البقاء على قيد الحياة؟ أم هل نأكل كي نعيش أم نعيش كي نأكل، أي كي نستمتع؟ (بغض النظر عن المفارقة).

إن التعلم، التطور والنمو يبطلون بعض الغايات، ويفرزون غايات جديدة. فالإكراهات تتناقض، والشك المتزايد يشمل الغايات نفسها. بل يمكننا أن نزعج أن النسق المفرد التعقيد لا يمكن أن يصل إلى أقصى درجاته. إن طبيعته غير اليقينية وطبيعته التطورية وجهان لحقيقة واحدة.

إن الدرجة القصوى للمجتمع المتطور هي أن يصبح نسقاً مفرداً التعقيد حقيقة، ولكن لا يمكن القول إن غايته هي النمو الاقتصادي أو سعادة الأفراد. ولا يمكننا القول، بصفة عامة، إن غاية المجتمع هي الفرد، أو إن غاية الفرد هي المجتمع، أو إن غايتهم مع هي النوع البشري،

الخ. وإذا كانت غاية الإنسان (منظورا إليه في نفس الوقت كنوع ومجتمع وفرد) فإن هذا يقودنا إلى تناقضات وشكوك، تناقضات وشكوك دينامية حقا، تؤسس التعقيد المفرط البشري دون شك، ولكن لا يمكن أن نستخرج منها أي مقياس لوظيفية واضحة وذات بعد واحد.

وهكذا فإن المقاربة الوظيفية بقدر ما تستجيب لموضوعات محددة داخل الأنساق الثابتة والمستمرة من تلقاء نفسها بصورة خالصة، فإنها يمكن أن تؤدي بنا إلى الخطأ فيما يخص التطور المفرط التعقيد⁽³⁾.

وكذلك الأمر بالنسبة للتشخيص، وهو الوجه الآخر للوظيفية. فيما يخص التركيب، فإن الانزياح عن القاعدة (البرنامج، الوظيفة) يكون تشخيصيا، ويؤدي غالبا إلى التدهور والانحدار إلا في حالات نادرة جدا حيث يتحقق تحول يؤدي إلى اكتساب خاصية جديدة. أما في حالة التركيب المفرط، فإن الانزياح قد يكون تشخيصيا إذا كان فقدا لخاصية من الخصائص التركيبية أو التحليلية؛ ولكنه قد يكون أيضا تجديدا. إن تشخيص التركيب المفرط يصبح مفرط التركيب، حين يصبح الانحراف مرادفا للإبداع، وحين يصبح التغيير عنصرا مكونا لمنظومة يصبح التطور معيارها، وهو ما يعني أن يتحول الانحراف إلى قاعدة، والقاعدة إلى انحراف.

هكذا يفرض علينا التركيب المفرط إعادة صياغة أبستمولوجيا، وإعداد تصور نظري مناسب، واستخدام منهج تشخيصي ملائم للموضوع في شموليته.

هذا أمر ضروري خاصة وأن المجتمع الحديث مجتمع مركب ومفرط التركيب في نفس الوقت ليس فقط على مستوى طبقات معينة، ولكن أيضا حسب عمليات تركيب متغيرة تعدلها الحالات الداخلية والوقائع الخارجية، ففي هذا المجتمع يمتزج الضبط بالتغيير، وتتراكم عمليات ضبط التوازن الذاتي وعملية التغيير مما يزيد الأمر تعقيدا.

ومهما يكن، فإن التركيب المفرط يبين لنا أن انعدام الدقة والشك والاستراتيجية والتجديد عمليات مترابطة فيما بينها. وبمعنى أوسع فإن نظرية التركيب المفرط تلتقي مع نظرية التطور⁽⁴⁾.

2. منظومة التعقيد:

لا تعتبر فكرة التعقيد وليدة التساؤلات التي تطرح في هاته الأيام المتزامنة مع التطورات العلمية والتكنولوجية، بل قد أتت مع الروايات المكتوبة في القرن التاسع عشر فحسب ادغار

موران ان التعقيد تم وصفه وادراكه من قبل الروايات في الوقت الذي كان العلم يقصي كل ما هو متفرد وخصوصي لكيلا يتم الاحتفاظ الا بالقوانين العامة والهويات البسيطة والمغلقة. وقد بينت الروايات ان لكل واحد العديد من الأدوار الاجتماعية ضمن الحياة اليومية هذا ما إذا كان في بيته او عمله او رفقة أصدقائه وكل واحد يحمل في داخله العديد من الهويات والعديد من الشخصيات وعالمها من الاحلام التي تصاحب حياته⁽⁵⁾، وهذا يجرنا الى الاستنتاج بان ليس المجتمع وحده مركب بل أيضا كل ذرة في العالم الإنساني، ومنه سكر مجموعة من العناصر كي تفسر ما تمثله منظومة التعقيد:

1.2. منظومة البساطة:

ولكي نفهم مشكلة التعقيد، يجب أن نعلم أن هناك منظومة خاصة بالبساطة، وهي منظومة تقوم بتنظيم الكون بإقصاء الاختلال من داخله، وهنا يتم اختزال النظام في قانون ومبدأ معينين. إن البساطة ترى إما الواحد وإما المتعدد، ولكنها لا ترى أن الواحد قد يكون في الوقت ذاته متعددًا. لنأخذ الإنسان مثلاً، فهو كائن بيولوجي، وهو في الوقت ذاته ثقافي يعيش داخل كون من اللغة والأفكار والوعي.

لقد كانت مهمة المعرفة العلمية مدعومة بهذه الإرادة في التبسيط، وهي الكشف عن البساطة المخفية وراء التعددية الظاهرة والاختلال الظاهر للظواهر؛ اعتقد العلماء أن الجزيئة هي الوحدة الأولية، ثم تبين أنها عبارة عن نسق معقد جداً يتعذر عزلها عن محيطها، إضافة لذلك تبين انبعث الاختلال داخل الكون الفيزيائي، وأن ما تدعوه الحرارة هي في الواقع إثارة فوضوية لجزيئات أو لذرات. فعند تسخين الماء تبدأ الجزيئات في التوزيع لتتبخر وتشتت⁽⁶⁾.

إن التطور يؤدي إلى نشوء أنواع في الطبيعة وموتها... وإن التبدد والاختلال يتعاقبان بشكل ما مع أن كل واحد عدو للآخر. قال هيراقليطس: "إننا نحيا بواسطة الموت، ونموت بواسطة الحياة."

2.2. الاستقرار والاختلال في الكون:

ينبعث التعقيد الذي يسم العلاقة بين الاستقرار /الاختلال /التنظيم عندما نلاحظ بشكل تجريبي بان ظواهر مختلفة تكون ضرورية في بعض الظروف وبعض الحالات لإنتاج ظواهر منظمة تساهم في تنمية الاستقرار، حيث يعتبر النظام البيولوجي أكثر تطوراً من

النظام الفيزيائي، اذ انه نظام تطور مع الحياة وفي الوقت نفسه يشمل عالم الحياة ويسمح باختلالات أكثر مما يشمل ويسمح به النظام الفيزيائي، ومنه فالاستقرار والاختلال ينموان جنباً الى جنب داخل تنظيم التعقد.

3.2. التنظيم الذاتي:

تعتبر كلمة الذات من أصعب الكلمات، والأكثر سوء للفهم لماذا؟ لأنه داخل أتصور اقليدي للعلم حيث كل شيء حتمي ولا وجود للذات ولا وجود للوعي ولا وجود للاستقلال. إذا ما تخلينا عن النزعة الحتمية الخالصة وخرجنا الى الكون حيث كل شيء يخلق داخل مسارات منتظمة ذاتيا وحيث كل نسق يخلق محدثاته وغاياته الخاصة، هناك نستطيع على الأقل فهم الاستقلال ثم بعد ذلك نعمل على فهم معنى ان نكون ذاتا.

ان نكون ذاتا معناها نكون مستقلين وتابعين في الوقت نفسه وان نكون شخصا مؤقتا وطارئا وليس يقينا معناه ان نكون كل شيء تقريبا لأنفسنا، ولا شيء تقريبا للكون.⁽⁷⁾

4.2. الاستقلال:

تعتبر مقولة الاستقلال الإنساني مقولة معقدة لأنها ترتبط بشروط ثقافية واجتماعية، فلك نكون نحن علينا أن نتعلم اللغة والثقافة والمعرفة، وعلى هذه الثقافة ذاتها ان تكون متنوعة بما فيه الكفاية لكي نستطيع نحن أنفسنا من الاختيار وسط خزان الأفكار الموجودة والتفكير بشكل مستقل.

إذا يتغذى الاستقلال من التبعية، أي اننا تابعون للتربية واللغة والثقافة وللمجتمع، اننا تابعون بطبيعة الحال للدماغ هو ذاته نتاج برنامج جيني، كما اننا تابعون أيضا لجيناتنا وبمعنى آخر فجيناتنا تستحوذ علينا بما انها لا تتوقف ان تفرض على جهازنا العضوي طريقة الاستمرار في الحياة. وبكل متبادل فأنا نمتلك جينات تمتلكنا أي قادرون بفضلها على التوفر على دماغ وعلى فكر اب نستطيع ان نختار من قلب ثقافة ما العناصر التي تهمنا وعلى ان نطور افكارنا الخاصة.⁽⁸⁾

5.2. التعقيد والاكتمال:

يظهر التعقيد للوهلة الأولى كإشكالية غامضة وصعبة. فهناك بطبيعة الحال أنواع مختلفة من التعقيدات، فهناك تعقيدات مرتبطة بالاختلال وأخرى مرتبطة بكل خاص بالتناقضات المنطقية اي هناك من ترتبط بالعالم الخارجي واللايقين وبالعجز ان نتصور

نظاماً مطلقاً. كما انه يرتبط من جهة أخرى بما هو منطقي أي بالعجز عن تفادي
المتناقضات.

6.2. العقل ن العقلانية ن التبرر العقلاني:

تقاطع العقل مع الإرادة في عنصر التوفر على رؤية منسجمة للظواهر وللأشياء
وللكون، فالعقلانية هي اللعب، هي الحوار الدائم مع فكرنا الذي يخلق بنيات منطقية
ويطبقها على العالم ويتحاور مع العالم الخارجي وعندما لا يتطابق هذا العالم مع نسقنا
المنطقي يجب الإقرار بان نسقنا غير مكتمل ولا يعالج سوى جزء من الواقع.⁽⁹⁾
ويعنى بالتبرير العقلاني الرغبة في سجن الواقع داخل نسق منسجم وكل ما يتناقض
مع هذا الواقع يتم تهميه واقصاؤه والنظر اليه على انه وهم وعديم الفائدة.

3. إبستمولوجيا التعقيد:

علم المعارف، ولكننا لا نجيب عن السؤال الأساس: ما المعرفة؟ ولا يتم الاهتمام بهذا
السؤال إلا داخل اختصاص فلسفي نخبوي يسمى الإبستمولوجيا. كما لا يتم الانتباه إلى أن
هذا المشكل – مشكل تعريف المعرفة – هو مشكل الجميع، ومشكل كل واحد، في الآن نفسه.
لماذا؟

لأن مشكل المعرفة هو في الأساس مشكل الخطأ والوهم. هناك جملة شهيرة لماركس
يقول فيها: "إن الناس لا يعرفون ما هم عليه من أحوال ولا ما يفعلون." وهي جملة لا تصدق
على عموم الناس فقط، بل تصدق حتى على ماركس نفسه! فهو لم يكن يعرف ماذا كان
يفعل عندما كان ينجز أعماله. ولكن هذه الملاحظة تصدق علينا نحن أيضاً: فعندما نفكر في
الماضي ونتأمل به بنوع من التباعد، نجده عبارة عن سلسلة من الأخطاء والأوهام. وعندما نفكر
في الماضي القريب، نتذكر الأحوال: النازية، الفاشية، الشيوعية، الستالينية، والليبرالية
الجديدة؛ نكتشف أخطاء هذه المنظومات وأوهامها، على الرغم من أنها كانت تعاش
كحقائق أكيدة. إن ما كان في الماضي حقيقةً أضحى في الحاضر خطأ أو وهمًا. وهكذا
نستمر في اكتشاف أخطاء الماضي دون توقف. لماذا؟

لأن المعرفة الأبسط هي معرفة ترجع، في المآل، إلى الإدراك الذي يبقى دائماً إدراكاً
محدوداً. إذ ليست المعرفة أبداً تلك الصورة المطابقة تماماً لموضوعها؛ فهي لا تتطابق وواقعها
تماماً التتطابق. إنها إدراك لبعض المنبّهات والمثيرات الحسية التي تُعاد ترجمتها ومعالجتها عن

طريق آلاف الخلايا البصرية التي تنقل هذه المعطيات إلى الدماغ عن طريق بالغة التعقيد، تتحول عبرها تلك المعطيات إلى إدراك. وهي عملية مازالت موضوع أبحاث جارية للكشف عن أسرارها⁽¹⁰⁾

فعل المعرفة هو، إذن، ترجمة معينة لواقع خارجي وإعادة بناء له. وهو فعل نقوم به تلقائياً من خلال ما يُسمى بظاهرة "الثبات الإدراكي". وهذه تعني أن الأشخاص الحاضرين والجالسين في آخر القاعة هم أصغر حجماً في شبكية عيني من الأشخاص الجالسين بجانبني؛ ومع ذلك، فإنني لا أتصور أصدقائي الجالسين في الصفوف الأمامية عمالقة والأصدقاء الجالسين في الصفوف الخلفية أقزاماً! فأنا أعرف أن كل الحاضرين لهم الحجم نفسه تقريباً. إن سيرورة الثبات الإدراكي هي التي تضمن إمكانية إعادة البناء التي نقوم بها في عملية الإدراك.

ونعرف، من جهة ثانية، أنه لا يوجد حدٌ فاصل بين الإدراك، من جهة أولى، والهلوسة أو التهيؤات، من جهة ثانية؛ لا يوجد أي حدٌ فاصل يُظهر لنا الفرق بين الإدراك والتهيؤ. إن أصدقاءنا هم عادةً مَنْ ينبهوننا إلى ما تقع فيه من لبس. في عبارة أخرى، مادام لا يوجد اختلاف جوهري بين الإدراك وبين التهيؤ والوهم، فإننا نبقي معرضين لاحتمال اعتبارنا ما قد يشبه لنا على أنه الواقع، في حين أنه مجرد توهم. إن الوهم يترصد بنا في إدراكاتنا كلها، بما فيها تلك الإدراكات التي نعتبرها الأكثر مباشرة والتصاقاً بالواقع الفعلي.

في هذا السياق، سأحكي لكم عن حادثة شخصية، سبق لي أن كتبت عنها في أحد كتبي. ذات يوم، وجدت نفسي في أحد مفترقات الطرق في الوضعية التالية: تغير اللون المنظم للمرور، وشاهدت، في تزامن مع ذلك، سيارة تصدم راكب دراجة هوائية. بالنسبة لي، لم تحترم السيارة الإشارة المنظمة للمرور، في حين كان لصاحب الدراجة الهوائية الحق في المرور. فسارعت إلى مساعدة راكب الدراجة وإلى توبيخ سائق السيارة، فإذا براكب الدراجة يقول لي: "إنني أنا الذي لم أحترم إشارة المرور! لماذا أخطأت؟ لأنه كان من المنطقي، بالنسبة لي، أن يصدم الكبير الصغير وأن يكون الصغير هو الضحية الدائمة للكبير.

تقودنا هذه الحادثة إلى طرح مشكل الشهادة، وبالتالي، إلى طرح سؤال المعرفة. إنكم تعرفون أن الشهود يجدون دائماً صعوبة بالغة في الشهادة بخصوص الحدث نفسه، على الرغم من أنهم جميعاً شاهدوه. ولكن، هل شاهدوه بالطريقة نفسها، ومن الزاوية عينها؟ هناك كتاب هام لمؤرخ إنكليزي يدعى نورتون كرو بعنوان في الشهادة، يتناول فيه وقائع الحرب

العالمية الأولى، حيث يُظهر أن الأحداث نفسها التي كان يعيشها الجنود أنفسهم كانت تُدرك بطرق مختلفة. لهذا علينا أن نحترس من إدراكاتنا وأن نعي حدود منظورنا. فإذا اقتنعنا بأن الأفكار والنظريات والتصورات هي ترجمات وتأويلات، فإننا، في هذه اللحظة، نعترف بأننا نواجه مشكلاً كبيراً، هو ميلنا "الطبيعي" إلى الوهم؛ وهو ميل يطوّقنا من كل صوب ويهددنا تهديداً مستمراً، على الرغم من محاولتنا التخلص منه. لهذا ينبغي أن نربي أنفسنا على التعامل مع فخاخ المعرفة، وأن نتعلم غريزة ومراجعة التأثيرات الثقافية التي تمارسها علينا المدرسة والعائلة بخصوص أفكار تظهر بديهية، كفكرة المجتمع والطبقة والفئة والأسرة إلخ. علينا، عموماً، أن نتعلم التحكم أيضاً في التأثير الذي تمارسه هذه الأفكار على الأذهان التي تعتقد بها اعتقاداً مطلقاً. ولحسن الحظ، توجد دائماً، في جميع المجتمعات، عقول ترفض هذه البدهية المفروضة أو المألوفة. ولكن، على الرغم من حسن الحظ هذا، يبقى خطر اليقين النهائي يهدد، مع ذلك، سيروية المعرفة بإيقافها أو إنهاؤها.⁽¹¹⁾

1.3 إعادة التنظيم الأبستمولوجي:

سيكون للأبستمولوجيا المعقدة كفاءة أوسع من التقليدية، لكن من دون أن تتوفر على أساس وموقع امتيازي، وعلى قدرة المراقبة أحادية الجانب، ستكون أولاً منفصلة على عدد من المشاكل المعرفية الجوهرية التي أثارتهما سابقاً أبستمولوجيا بشارل (التعقيد) وبياجي (بيولوجيا المعرفة، الترابط بين المنطق وعلم النفس، والذات المعرفية).

وستقترح، ثانياً، على نفسها فحص ليس أدوات المعرفة في ذاتها فقط، بل شروط إنتاج أدوات المعرفة (الشروط العصبية الدماغية، الشروط الاجتماعية الثقافية). وبالتالي تتوقف معرفة المعرفة مجدداً على المعارف العلمية الكثيرة والمشتتة، غير أن صلاحية هذه المعارف الكثيرة والمشتتة تتوقف على معرفة المعرفة. وجدير بالذكر أن الأبستمولوجيا المعقدة ستحدث ثورة هوبلية، لأنها مجردة من الأساس، فبدل الانطلاق من "عبارات الأساسية" أو "عبارات البروتوكول"، يتصور «رويشر Roscher» نسقا على شكل شبكة بنيتها ليست تراتبية، ويضيف ادغار موران فكرة ديناميكية التكرار الدائري، أي أن الأبستمولوجيا ليست مركز الحقيقة بل يجب أن تدور حول مشكل الحقيقة، وعبر هذا الدوران يأمل موران في إعادة تمفصل/إعادة تنظيم المعرفة، تكون هي نفسها ملازمة لجهد التفكير الأساسي، وبالتالي فمعرفة المعرفة هي أبستمولوجيا فوقية، لأنها تتجاوز أطر الأبستمولوجيا التقليدية وتتضمنها في الوقت ذاته، ورغم اهتمامها بالمسائل العلمية فإنها تساءل المعارف الغير العلمية،

فهي تتبنى وجهة النظر العقلانية، ولكن ترفض المعارف الغير العقلانية، أي أنها تحتفظ بإشكالية الحقيقة مفتوحة على الدوام، فكل معرفة تدعي الصدق، إلا أنها في طياتها تحمل الخطأ الوهم والجهل أيضا⁽¹²⁾

كما أن الأبستمولوجيا المعقدة أبستمولوجيا شاملة لأنها لا تستطيع الإشراف على المعارف بل تندمج في مسار معرفي يحتاج إلى التفكير في ذاته والتعرف عليها وموضعها وأشكلتها.

خاتمة:

ما يمكن قوله في آخر المطاف ان المفكر وعالم الاجتماع الفرنسي ادغار موران استطاع اخراج المعرفة من كنف التبسيط المفرط الى النظر للظواهر العلمية انها معقدة والى ان الانساق مركبة في ما تحويه من العناصر وكل عنصر في حد ذاته معقد، وقد كان لما توصل اليه ادغار موران اثرا بالغيا في الحقل العلمي الأبستمولوجيا المعاصرة وفي تحرير العقل من نتائج علمية تأمن بالبساطة وتبني عليها مسلماتها الى ما هو جديد وأكثر دقة.

الهوامش والاحالات:

1. عبد الكامل نينة، ادغار موران: ضرورة الفكر المركب (التركيب والتعقيد)، تاريخ التصفح: 2019/08/28 <http://www.ahewar.org>
2. ادغار موران، ت: مصطفى ناجي، من اجل نظرية للتغيير، تاريخ التصفح: 2019/08/28 <https://elmawja.com>
3. ادغار موران، ت: مصطفى ناجي، المرجع السابق نفسه .
4. ادغار موران، ت: مصطفى ناجي، المرجع السابق نفسه .
5. ادغار موران، ت: احمد القصوار، منير الحجاجي، الفكر والمستقبل مدخل الى الفكر المركب، دار توبقال للنشر والتوزيع، ط1، المغرب، 2004، ص. 61
6. ادغار موران، ت: احمد القصوار، منير الحجاجي، المرجع السابق نفسه، ص. 62
7. ادغار موران، ت: احمد القصوار، منير الحجاجي، المرجع السابق نفسه، ص. 66
8. ادغار موران، ت: احمد القصوار، منير الحجاجي، المرجع السابق نفسه، ص. 68 – 69
9. ادغار موران، ت: احمد القصوار، منير الحجاجي، المرجع السابق نفسه، ص. 70 – 71
10. محمد زرتين، ادغار موران، سبعة ثقوب معرفية سوداء، تاريخ التصفح: 2019/08/28 <http://www.alwaraq.net>
11. محمد زرتين، ادغار موران، المرجع السابق نفسه.
12. محمد زرتين، ادغار موران، المرجع السابق نفسه.